

## نظرية التشيؤ عند جورج لوكاتش

اسماعيل عكاك

جامعة الجزائر.2

akkak.ismail44@gmail.com

تاريخ الإرسال: 12 / 07 / 2021 ؛ تاريخ القبول: 27 / 04 / 2022

### Georges Lukacs's theory of reification

**Abstract:** The aim of this article is to relate the history of the concept of reification through the work of Lukacs in order to stress the influence exerted by - history and class consciousness - (1923) on western marxisme. Lukacs's theory of reification, explained in his work, is often interpreted as a theory of ideology, however it is also a theory of social practice and social ontology. The essence of commodity-structure has often been pointed out. Its basis is that a relation between people takes on the character of a thing and thus acquires a phantom objectivity, an autonomy that seems so strictly rational and all-embracing as to conceal every trace of its fundamental nature: the relation between people. Our intention here is to base ourselves on Marx's economic analyses and to proceed from there to a discussion of the problems growing out of the fetish character of commodities, both as an objective form and also as a subjective stance corresponding to it. Only by understanding this can we obtain a clear insight into the ideological problems of capitalism and its downfall.

**Keywords: Western Marxism; Weimar; Reification; Georges Lukacs;1922-1923.**

### الملخص:

إن هذا المقال يهدف إلى فهم تاريخ مفهوم التشيؤ عند جورج لوكاتش، ومن ثمة تأكيد التأثير الكبير الذي أحدثه مؤلف التاريخ والوعي الطبقي (1923) على الماركسية الغربية. إن نظرية التشيؤ عند لوكاتش، غالبا ما تفسر وتؤول من خلال هذا المؤلف، على أنها نظرية في الإيديولوجية، ومع ذلك أيضا تُفهم على كونها نظرية في الممارسة الاجتماعية و الأنطولوجية الاجتماعية. إن جوهر البنية التجارية، غالبا ما دُلل عليه، على أنه يركز على واقع أن رباطا أو علاقة بين الأشخاص يأخذ طابع شيء. وبهذه الصيغة، فهو يشكل طابع موضوعية وهمية في نظام قوانينها الخاص، الصارم والمغلق تماما، والعقلاني بالظاهر. بدليل أنها تحفي كل أثر لطبيعتها الأساسية، أي الصلة بين الناس. لذلك سنركز فقط - مع الافتراض المسبق لتحليلات مركزس الاقتصادية- على المشاكل الأساسية الناجمة عن الطابع الصنمي للسلعة من حيث هي صيغة موضوعية، من جهة، وعلى سلوك الذات المتوافقة معه، من جهة أخرى. إن هذه المشكلات سيسمح لنا فهمها بتكوين نظرة واضحة عن المشاكل الإيديولوجية للرأسمالية، وانهايار هذه الأخيرة.

## الكلمات المفتاحية: الماركسية الغربية؛ فايما؛ جورج لوكاتش؛ التشيؤ؛ 1922-1923.

### مقدمة:

لقد ارتبطت الماركسية بمفهوم الصراع الطبقي الذي شكل تفسيراً أساسياً لمختلف التطورات التي عرفتتها المجتمعات البشرية عبر التاريخ، خاصة الاقتصادية منها. وما دما قد تطرقنا للتاريخ، فإنه تجدر الإشارة إلى أن العديد من النظريات الفلسفية قد سعت إلى اكتشاف القوانين التي تحرك التاريخ، أو بعبارة أخرى، سعت إلى تحديد القوى أو العوامل الرئيسية المحركة للتاريخ. لكن من الواضح جلياً أن تاريخ الإنسان يختلف جذرياً عن تاريخ الطبيعة، عكس ما كان يدّعي دعاة الماركسية المبتدلة، بحيث جعلوا وعي الإنسان بمثابة طبيعة ثانية.

يعتقد جورج لوكاتش (1885-1971) أن الوعي هو الحاسم في المجتمعات الغربية المعاصرة، وإن كان قد ناقش هذه المسألة ضمن إطار إيديولوجي، نظراً لدور الإيديولوجيا في المجال الثقافي والسياسي.

لقد وضع ماركس كيفية إلغاء التشيؤ الذي يسيطر على البشر، وذلك من خلال إخضاعهم لحركة المجتمع لهم، عوض إخضاعهم للمجتمع لها. إن هذا النقد التاريخي الذي وجهه ماركس للاقتصاد السياسي، كان بمثابة نقطة الانطلاق الرئيسية في بحث لوكاتش عن القوانين الاجتماعية

للتاريخ، وبالتالي التسليم بأن البشر هم الذين ينفذون بوعي أعمالهم التاريخية. وعليه، ما هو المبرر المعرفي والإيديولوجي لمحاولة جورج لوكاتش تجديد الفكر الماركسي المحتكر من طرف السوفييات؟ ما هي الأسباب المعرفية والاقتصادية التي دفعت لوكاتش الى صياغة مفهوم التشيؤ؟ وهل مكنته المقاربة الكليانية من تجاوز التحليل الاقتصادي لمسألة التشيؤ؟

إن محاولة الإجابة عن هذه التساؤلات، اقتضت انتهاج المنهج التحليلي، خاصة ما تعلق بالخلفيات الإيديولوجية لمفهوم التشيؤ كما صاغه لوكاتش في كتابه الشهير - التاريخ والوعي الطبقي - (1923). هذا وقد قسمنا مقالنا إلى قسمين رئيسيين: القسم الأول تطرقنا فيه إلى تجديد لوكاتش للفكر الماركسي المحتكر من طرف السوفييات، أما القسم الثاني فتطرقنا فيه إلى التشيؤ والاعتراب في المجتمعات الرأسمالية المتقدمة، وهذا من خلال التركيز على المقاربة الكليانية لـ(جورج لوكاتش) لمسألة التشيؤ.

## 1-دروب الماركسية الغربية: من نقد الإيديولوجية الماركسية الدوغمائية إلى نقد التشيؤ في المجتمع البورجوازي

إن مبالغة الوثوقية الماركسية وتعصبها وضيق افقها أدى إلى ردود أفعال خصوصا عند من يطلق عليهم اسم الماركسية الجديدة. وكان لوكاتش قبل النقد الذاتي من أوائل هؤلاء الذين رفضوا الوثوقية

الماركسية، رغبة منه في المساهمة في بناء العالم الشيوعي الذي ينتمي إليه، فقد ألح على أن الماركسية إنما وجدت للزيادة في التساؤلات الإنسانية لا لوضع حد لها. كما أنه بين أن الماركسية هي أداة عجيبة لتعرية الهياكل الداخلية لمجتمع لا إنساني في ماهيته. ولقد ساهم في تغيير كثير من المصطلحات السياسية الماركسية بحيث عوض ديكتاتوريا البروليتاريا بالديمقراطية الثورية وعوض الصراع بين الرأسمالية والشيوعية بالصراع بين القوى الديمقراطية والقوى المضادة للديمقراطية. كما أنه رفض في الميدان الفلسفي جدلية الطبيعة وحاول أن يعيد للوعي دوره الإيجابي في الحركة التاريخية. وهذا ما عبر عنه لوكاتش بقوله: ﴿...فخلال سنوات العشرينات من القرن الماضي، حاولت رفقة كل من كارل كورش و أنطونيو غرامشي، كل حسب طريقه، مجابهة مشكلة التأويل الميكانيكي للضرورة الاجتماعية، والتي تعتبر إرثا للأمية الثانية.﴾ (118 : 1978 : Georges Lukacs) فمعظم دراساتهم الفلسفية كانت تهدف إلى تجديد الجدلية الماركسية التي جف نسغها منذ أمد طويل.

فقد كان انعدام الفعالية المتزايد للقيادات الاشتراكية- الديمقراطية الأوروبية، (أنظر التعليق رقم 1) والذي تجلّى واضحاً في أزمة ما بعد الحرب، إشارة خارجية لتأثير كبير، وقد تماشى فيه تحجر البنى البيروقراطية التنظيمية مع ماركسية رسمية بنيت على أساس مجموعة جامدة من المذاهب الاطلاقية ﴿قوانين التطور الاجتماعي﴾ على غرار

قوانين العلوم الطبيعية. في هذه الأوضاع كانت الحاجة لتجديد الماركسية ملحّة. وقد قاوم كل من غرامشي و لوكاتش مداخل الوضعية إلى الماركسية، هذا الاتجاه الوضعي العلمي (scientism) الذي كان أساس أرثوذكسية الأهمية الثانية. إلا أن هذه النظريات أصبحت، وإلى حد كبير لا تزال، تيارا ثانويا في الحركة الاشتراكية العالمية بعد أن فرضت الأرثوذكسية الستالينية منطقتها خلال الثلاثينات، ولم يصبح إعادة اكتشافها ممكنا بشكل واسع إلا بعد المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفياتي عام 1956. ﴿جون مرينغتون، 1970: 141﴾

إن كل هذه المعطيات قد تطرق إليها لوكاتش بالتفصيل في مؤلفه الشهير التاريخ والوعي الطبقي. ﴿إن الاستشهاد بمؤلفات ماركس و انجلز ما هو إلا تأويل لها بذات الحين، ويبدو للمؤلف أن الكثير من الأوجه الجوهرية، لمنهجية ماركس، وبالخصوص التي تهم، وأصبحت جد حاسمة لفهم الجدلية في تناسقها المنتظم والفعال، قد وقعت في طي النسيان. وإن فهم المركز الحيوي لهذه المنهجية، أعني الجدلية، أصبح صعبا وشبه مستحيل.﴾ (Georges Lukacs, 1960 : 11-12)

رغم أن كتابات كارل ماركس لم تحمل في طياتها ذلك التعقيد الذي ميز العديد من الكتابات الفلسفية الكلاسيكية، سواء من حيث المنهج أو المضمون، والذي من شأنه أن يؤدي إلى تضارب التأويلات

حول أطروحاته، إلا أن الواقع قد أثبت أن المطالبة بحق الانتساب إلى الماركسية الأصيلة من طرف العديد من المنظرين والفلاسفة، يجعلنا نتأكد من وجود أطروحات زائفة إدعت الانتساب إلى الماركسية، وبالتالي يحق لنا الاعتراض عنها أو التخلص منها، لأنها وبكل بساطة هي تسيء إلى ماركس أكثر من أن تدافع عنه وتعبّر عن أفكاره الأصيلة.

يؤكد لوكاتش أن الأصالة الماركسية لا تتعلق بأي تحليل من التحليلات الملموسة للعلم، ولا تعني تسليما بدون نقد لنتائج بحث ماركس، ولا تأويل كتاب مقدس، وإنما تتعلق بالمنهج، إنها تتضمن الاقتناع العلمي القائل: إنه بالجدلية الماركسية وجدت منهجية البحث الصحيح، وأن هذه المنهجية لا يمكن تطويرها، تكميلها، وتعميقها، إلا باتجاه العودة إلى مؤسسيها، على أن كل المحاولات لتجاوزها أو لتحسينها لم توصل إلى لابتدائها، وإلى الانتقاء منها، وكان من الضروري أن توصل إلى ذلك. ﴿(Georges Lukacs, 1960 : 17-18)

## 1-1- لوكاتش وتجديد الفكر الماركسي المحتكر من طرف

### السوفييات

إن الإشكال الرئيسي الذي ظل يورق لوكاتش في كتاباته الفلسفية هو إشكال البحث عن منهج، لذا حين يهتم بدراسة الماركسية، فإنه يتميز عن غيره من شراحها، إذ إنه يبحث عن الجانب المنهجي في

أعمال ماركس، لذا فقد أعطى للماركسية بعدا فلسفيا حقيقيا، لأنه أبرز هذا الجانب، ولم يقف عند رأس المال ككتاب في تاريخ وتطور الرأسمالية فحسب، وإنما بحث عن الإسهام الحقيقي الذي قدمته الماركسية في تاريخ الفلسفة. فحسب لوكاتش، ﴿ فإن الجدلية المادية هي جدلية ثورية. إن هذا التقرير هو من الأهمية ومن الثقل الحاسم لفهم جوهره، حتى إنه هو الذي يجب مواجهته أولا قبل أن يتم بحث المنهجية الجدلية ذاتها، للتمكن فعلا من طرح المشكلة، والمقصود هنا طرح مشكلة النظرية والممارسة.﴾ (Georges Lukacs, 1960 : 19)

إن كل هذا يبقى مرتبطا بصلة وثيقة بقدرة طبقة معينة على معرفة دورها في الصراع خلال وضع تاريخي معين، أي تصبح، لهذه الطبقة، المعرفة بذاتها، والذي يعادل في الوقت ذاته المعرفة اليقينية للمجتمع كله. وفي هذه الحالة تصبح هذه المعرفة بمثابة الذات والموضوع في الآن نفسه. بحيث تصبح النظرية، بهذا الشكل، متفاعلة تفاعلا مباشرا أو متطابقا في مسيرة الثورة الاجتماعية، فعندئذ، تلك الوحدة الجدلية بين النظرية والممارسة، على أساس أنها الشرط المسبق لفعالية النظرية الثورية، تصبح ممكنة. ﴿ وان وضعها كهذا لم يظهر إلا مع ظهور البروليتاريا في التاريخ، فمصير التاريخ وحل لغزه يبقى مرهونا بقدرتها على معرفة ذاتها ودورها في الصراع الطبقي، وعلى قدرتها على مواكبة الواقع. فإما يتحقق وعي البروليتاريا فيحل لغز التاريخ، وإما

يتأخر الوعي البروليتاري عن ذاته فيتعثر التاريخ ويبقى لغزا إلا ما لا نهاية. ﴿عبد الله العروي، 2007: 91﴾

إن اهتمام لوكاتش بالمنهج لا يخفى عن كل من يقرأ التاريخ والوعي الطبقي قراءة متفحصة. ويعتقد لوكاتش أن المنهج الجدلي هو منهج جيد لمعرفة المجتمع والتاريخ. لذلك قرر تطويره مع الوفاء لروح مؤسسيه. إنه لا يريد أن يُحسن المذهب الماركسي بل يريد أن يحسن المنهج الجدلي. غير أن التحسين إن كان ضروريا لتفسير المسلك المختلف الذي يرتضيه لوكاتش للوصول الى مجتمع بدون طبقات سيؤثر من غير شك على تحسين المذهب الماركسي نفسه. ﴿Henri Arvon, 1986: 53﴾

لكن جدلية الطبيعة كما عرضها النجلز في كتابه -ضد دوهرنج- (انظر التعليق رقم 2) تأتي فتحط من قيمة الوعي فتجعل منه ظاهرة زائدة بقدر ما ترفع من شأن المادة الى مستوى الجدلية. إن هذا الرسم المادي للمعرفة الذي يخرج الذات خارج التاريخ يرمي الى البرهنة على عدم فعالية كل موقف وجداني بحت. إن الجدلية لا ترمي الى البحث عن كلية التوترات الموجودة. إنها لم تعد داخل الماركسية سوى مجرد انعكاس العملية الاقتصادية. وهذا ما عبر عنه لوسيان غولدمان بقوله: ...فحتى يحدث لوكاتش قطعة جذرية، فقد قام بنقد كتاب، كان في فترة وجيزة، والى مدة متأخرة، بمثابة الإنجيل عند الماركسية المتبدلة والدوغمائية، ونعني به، طبعا، ضد دوهرنج

لانجلز(...) فالقطيعة مع الوضعية لا تتعلق بالعقلانيين، التجريبيين، والكانطيين الجدد، وإنما كذلك تتعلق بالقطيعة مع الماركسية الوضعية الزائفة الى غاية مؤلفها الأكثر تعبيراً، والأكثر علمية ونبوغاً، أي ضد دوهرنج. ﴿84 : Lucien Goldmann, 1973﴾

عندما يؤكد لوكاتش على العلاقة الجدلية بين الذات والموضوع في العملية التاريخية فهو يريد من وراء ذلك أن يثور ضد كتاب انجلز سالف الذكر. إذ لا يكفي في نظره أن نثور ضد الميتافيزيقا. فإذا كانت الميتافيزيقا تعطي الواقع طابعا نهائيا وغير قابل للتغير، فينبغي للجدلية - اللهم إلا أن تجعل من نفسها مجرد منهج علمي - أن تركز على مشنوية بين الذات والموضوع لكي تبقى منهجا ثوريا. ﴿فالمنهج الجدلي يرى الظاهرة في صيرورتها وتغيرها المستمر، ويدرس تغيراتها الكيفية، بينما تميل الميتافيزيقا التقليدية الى إبقاء الظاهرة التي تدرسها غير ملموسة، وثابتة، ويصبح المنهج الحدسي هو السائد، بينما يركز المنهج الجدلي على تغيير الواقع.﴾ (20 : Georges Lukacs, 1960) ولا يكتفي لوكاتش بهذا التمييز، بل يحاول أن يميز المنهج الجدلي عن العلم الطبيعي أيضا، لأن العلم الطبيعي يحول أي ظاهرة يدرسها الى جوهرها الكمي، أي يعبر عنها بالعدد وبصلات العدد، وهذا يعوقنا عن رؤية الجوهر الكلي للأشياء، لأن تحويل أي ظاهرة الى مجرد كم يفتتها ويحيلها الى مجموعة أجزاء لا ندرك جوهرها الحقيقي، وهذا متسق مع ميل التطور الرأسمالي الى اختصار العالم الى مجرد أعداد

رقمية، ويصنع الحياة بطابع صلمي ويحول ظواهر المجتمع وإدراكه معها بحيث تبدو مجموعة من الظواهر والأحداث المنعزلة، بينما يلح المنهج الجدلي على وحدة الكلية المتعينة ويكشف القناع دائما عن هذه الرؤية الوهمية التي تفصل العناصر عن بعضها. ويربط لوكاتش بين بنية المجتمع الرأسمالي والطبيعة النوعية للعلم الطبيعي، فهذا العلم الذي يبدو أساسا للقيمة العلمية، بالطريقة التي نتعرض بها للأحداث والظواهر في العالم، ومنهجا لإدراك الطبيعة، يقف ببساطة عقائديا، على الأرض الإيديولوجية للمجتمع الرأسمالي، التي لا تهتم بجوهر الأشياء وإنما باعتبارها كما فقط.

لكن أكثر الانتهازين نبوغا يستشهدون بمنهجية علوم الطبيعة. (انظر التعليق 3) فالابتدال نتج بالضرورة عن التصورات التي تربطها صلات انعكاسية محضة، من خلال جعلها تشكل على شكل نماذج لازمنية، أبدية، ومشاركة لكل أشكال الحياة الاجتماعية.

إن منهجية علوم الطبيعة، التي تكون المنهج النموذجي لكل علم انعكاسي، ولكل مراجعة، لا تعرف تناقضا أو مضادة في موضوعها، فإذا صادفت مع ذلك تناقضا بين النظريات المختلفة، لا ترى فيه إلا عرضا من أعراض درجة المعرفة غير المنتهية، المدركة آنذا. (Georges Lukacs, 1960: 28) أما بالنسبة للواقع الاجتماعي، فعلى العكس، بحيث إن هذه التناقضات ليست بمثابة خصائص عرضية لا تمت بصلة

الى الواقع، بل إنها تمس عمق وجوهر المجتمع الرأسمالي. وان محاولة تجاوز هذه التناقضات عبر المعرفة الكلية، لا يمنع من أنها تظل بمثابة تناقضات ضرورية، رغم أن النظرية القائمة على المعرفة الكلية، التي تهدف الى تجاوز هذه التناقضات، هي مدعوة الى تبين الاتجاهات الواقعية لصيرورة المجتمع، ولن يكون ذلك إلا عبر تجاوز تلك التناقضات السالفة الذكر.

إن كل هذا يعود لكون أن المثال المعرفي للعلوم الطبيعية، لدى تطبيقه على الطبيعة، لا يقوم إلا بخدمة العلم، ويبدو لدى تطبيقه على تطور المجتمع كأداة معركة إيديولوجية لدى البورجوازية. وبالنسبة لها، فإنها قضية حيوية، من جهة، أن تدرك بان نظام إنتاجها الخاص يتشكل من مقولات صحيحة بشكل لازمني وموجهة لأن توجد أبديا بفضل قوانين الطبيعة والعقل، ومن جهة أخرى، باتت تحكم على التناقضات المفروضة على الفكر، والتي لا يمكن تجنبها، لا كظواهر تنتمي لجوهر هذا النظام الإنتاجي، بل كوقائع سطحية بسيطة.

لقد هدف المفهوم البورجوازي للعلم بأن يعلمنا كيفية التفكير حول ما هو اجتماعي وكأنه طبيعة ثانية، وهذا ما مهد للدراسة الموضوعية التي تزامنت مع فتح الإنتاج الرأسمالي لمجال غير محدود للعمل. لكن الأشكال الرأسمالية للإنتاج انتهت الى تعطيل القوى الإنتاجية، أين ولدت القوانين الطبيعية للنظام الاجتماعي، وتم فصل

البنية التاريخية عن هذه القوانين. مما أدى الى إخفاء العمق الديناميكي لكل شيء، وجعل سمات الكون تتحنت في شكل صورة أبدية لا تتغير أبدا. ﴿(Maurice Merleau Ponty, 1955 : 57)

إن الصلات الانعكاسية لهذه الصيغ الصنمية، (أنظر التعليق رقم 4) وقوانينها، التي أنتجها المجتمع الرأسمالي، تظهر كأنها بمثابة التمثيلات الضرورية التي يقيمها عملاء الإنتاج الرأسمالي، لكنها، في الواقع، تخفي الروابط الواقعية بين المواضيع، فهي إذن موضوع للمعرفة، ولكن الموضوع المعروف ضمن وبواسطة هذه الصيغ الصنمية ليس نظام الإنتاج الرأسمالي ذاته، بل إنه إيديولوجية الطبقة الحاكمة. ﴿وما يميز هذه الصيغ الصنمية والانعكاسية هو سعيها لأن تجعل من ظواهر المجتمع الرأسمالي بمثابة ظواهر متعالية عن التاريخ، مما يقصي كل معرفة موضوعية وكلية تتسم بالطابع التاريخي والاجتماعي. ولذلك يجب تمزيق هذا الستار لبلوغ المعرفة التاريخية. فالوهم الصنمي، تتمثل وظيفته في إخفاء الطابع التاريخي (...) بل يتعدى ذلك الى إخفاء كل صيغه الاقتصادية، وجوهرها العميق كصيغ للموضوعية، وكصيغ روابط بين الأفراد. فتبدو صيغ الموضوعية بمثابة أشياء. ولهذا كان بأن المنهجية الجدلية، في حين أنها تمزق ستار أبدية المقولات الانعكاسية، عليها أيضا أن تمزق ستار تشيئها لتفتح الطريق نحو معرفة الواقع. ﴿(Georges Lukacs, 1960 : 33-34)

لقد كان الشرط المسبق لتجديد الماركسية لـ (غرامشي) وكذلك لوكاتش، رفض النزعة الاقتصادية بمختلف أشكالها، أي النزعة لاختزال مستويات البنية الفوقية المختلفة الى مرتبة المظهر أو الظاهرة، وقد أنتجت هذه النزعة على أيدي الأساتذة الماركسيين في الأمية الثانية مفهوما تطوريا - حتميا للتاريخ الذي يفهم الى أنه محكوم بقوانين موضوعية يتخطى أثرها مجال التدخل الإنساني الفاعل. وكانت النتيجة جبرية كوارثية في وجه الأحداث، معتمدة على إيمان أعمى بقوانين التاريخ وبانهيار الرأسمالية المحتوم تحت ضغط تناقضاتها الداخلية. وكل هذا يفسر لنا تلك الانتقادات اللاذعة التي وجهتها الماركسية الجديدة لمؤلف بوخارين - نظرية المادية التاريخية - أين رفض مؤيدو الماركسية الجديدة، وعلى رأسهم لوكاتش و غرامشي، المادية المبتدلة والموضوعية المزيفة لمنهج بوخارين الذي يفهم الماركسية على أنها وسيلة بالثبؤ بأحداث المستقبل بنفس دقة علوم الطبيعة (...). فلم يكن الشيء الذي قامت به المادية المبتدلة والعلمية إلا إعادة استعمال مقولات العلم البورجوازي وإهمال الطبيعة الجدلية للكلية الماركسية. (جون مرينغتون، 1970: 142-143)

إن الشيء الذي جعل الماركسية تذبذب هو تحولها الى مذهب علموي. وقد قام بهذا العمل دعاة الحزب الاجتماعي - الديمقراطي، فجمدوا الفكر الثوري للبروليتاريا الألمانية وجددوا تدريجيا نحو الجبرية التاريخية... فلا شك أن عرضا مثل عرض لوكاتش سيحرجهم لأنه

يعيد للإرادة الثورية الأصلية - من خلال الوعي الطبقي - كامل دوره داخل الحركة التاريخية.

ليست أولوية الدوافع الاقتصادية في التفسير التاريخي ما يميز الماركسية حتما عن العلم البورجوازي، بل وجهة نظر الكلية. إن مقولة الكلية، والسيادة المقررة، وفي كل المجالات لكل على الأجزاء، هي التي تكون جوهر المنهجية التي أخذها ماركس عن هيجل وحوها بطريقة إبداعية يجعل منها أساسا لعلم جديد تماما: إن الفصل الرأسمالي بين المنتج ونمط الإنتاج العام، وبعثرة نمط العمل الى أجزاء تركت جانبا الخاصية الإنسانية للعمل، وتشتت المجتمع الى أفراد ينتجون بدون تصميم وبدون اتفاق على عمل مشترك... الخ، كان من الواجب أن يكون لكل ذلك تأثير عميق على الفكر، والعلم، والفلسفة، لدى الرأسمالية. وإن الأساس الثوري في العلم البروليتاري، ليس فقط أن يواجه المجتمع البورجوازي بمعطيات ثورية، بل بجوهر المنهجية الثورية. إن سيادة مقولة الكلية هي الحاملة للمبدأ الثوري في العلم. (48) (Georges Lukacs, 1960 : 47-)

فما يميز ماركسية لوكاتش هو كونها تمتاز بأنها أكثر مدى وشمولية. بحيث لم تكن الجبرية الاقتصادية بمثابة العائق الأكبر أمام تفسير النواحي الحاسمة للواقع الاجتماعي والسياسي المعاصر، بل امتد عجزها وبصيرتها النظرية المحدودة الى نظرتها الجزئية للمستقبل

الاشتراكي، فلم تهتم إلا بتغيير البنية الاقتصادية، عوض التأكيد على نظرة شاملة مبنية على نقد شامل. هذه النظرة الشاملة والكلية التي تضمنتها فقط الماركسية الجديدة.

يتميز لوكاتش عن غيره من شراح الماركسية في أنه لا يبحث عن التحليلات السياسية والاقتصادية في رأس المال، بقدر ما يبحث عن الجانب المنهجي والفلسفي في فكر ماركس، وهذا يعني أنه ينظر للماركسية كمنهج وليس كمذهب يحوي الحلول الشاملة لكل شيء، وهذا من الجوانب الهيجلية في تفكير لوكاتش بصدده دراسة للماركسية، وهو لا يطبق الكلية باعتبارها مقولة جدلية عن الماركسية فحسب، وإنما يستخدمها في دراسته عن الوعي أيضا، بحيث أصبحت هذه المقولة لديه منهجا لإدراك تلك المجتمعات البشرية، وهو يرفض في مقابل هذا العلم الطبيعي الذي لا يستطيع - في رأيه - إدراك المجتمع في كليته، لأنه يركز على الجزئي والعيني والمحسوس والآني، بينما المجتمع يشكل وحدة كلية ومتغيرة أيضا، وهو يرفض أيضا الميتافيزيقا التقليدية التي تقتضي تثبيت الموضوع المدروس حتى يمكن بحثه عن طريق الحدس في أغلب الأحوال. ﴿محمد غانم البسطاويسي، 1991: 37﴾ مما يعني أن ماركسية لوكاتش هي فلسفة متحررة من كل القيود الوضعية الدوغمائية، بما فيها نظرية الانعكاس اللينينية التي تحط من قيمة الوعي.

إن كتاب التاريخ والوعي الطبقي لجورج لوكاتش يعد أول محاولة لتأسيس الماركسية الجديدة أو الماركسية الغربية كما يفضل بعض المنظرين تسميتها، والتي ظهرت كحركة مضادة لاحتكار الماركسية من طرف السوفييات. \* وهذا ما سيغذي تساؤلا اعم فيما بعد من طرف غرامشي حول مستقبل الثورة في أوربا الغربية، أي التركيز على ما يصنع خصوصية الغرب الأوربي في وجه الشرق السوفياتي. \* (هينغ بورتلي، 1997: 655)

من الواضح جليا أننا بصدد بروز تعارض كلاسيكي تتكيف من خلاله الماركسية، أي أننا أمام انبثاق سيرورة مزدوجة تأخذ شكل تعارض بين الشرق (الاتحاد السوفياتي) والغرب.

بالنسبة لكتاب - التاريخ والوعي الطبقي - فقد قيل بحق أن سر بقائه الوثيق الصلة بالموضوع يعود فضله الى الطريقة التي استرد فيها لوكاتش البعد الهيجلي في فكر ماركس. إن النتيجة المدوية التي أحدثها داخل الحركة الشيوعية الأوربية مردها الى أمور أكثر بساطة. فالشيوعية الدولية كانت قد باشرت آنذاك المهمة الطويلة والشاقة في بلشفة قطاعاتها المختلفة. اي، تحويل الجيش الذي كان مزيجا من معارضي الحزب واشتراكيين من ذوي الميول النقابية الفوضوية الى لينيني ين منضبطين، ومن وجهة نظر خلفاء لينين (...) ليس ثمة ما هو اقل مثارا للسرور من الظهور المفاجئ لمدرسة غربية شيوعية، يمثلها

منظرون من أعمال لوكاتش (...) ممن لم تتم بلشفتهم كما ينبغي. (ليشتهايم، 1975: 74)

إن غياب النزعة النظرية النقدية عن أطروحات الماركسية الدوغمائية أو المبتدلة، أدى الى عدم فهم اللحظة التاريخية من طرف دعاة هذه الماركسية، مما جعل الثورة البروليتارية تغيب عن جدول أعمالها.

لكن بفضل لوكاتش وكارل كورش تم نزع طابع القدسية عن الماركسية، ف(كورش)، ومن خلال تزويده للماركسية بتاريخ، وتسليمه حتى بمراحلتها (ماركسية الأمية الأولى، ماركسية الأمية الثانية...)، جعل الميدان القادم لمغامرات الديالكتيك، كما سيقول ميرلوبونتي فيما بعد، مفتوحا.

### 1-2- لوكاتش والمقاربة الكليانية لمسألة التشيؤ

من المتوافق عليه بصورة عامة اعتبار أن المساهمة الكبرى لـ (لوكاتش) في الفكر الذي ساد القرن العشرين، دفعت الى واجهة التفكير الفلسفي مسألتي الاغتراب و التشيؤ اللتين كان كل من هيجل وماركس قد كشفنا بعدهما الاجتماعي- التاريخي، غير المؤلف. فالدراسة التي أجريت حول التشيؤ، والتي شكلت نواة كتاب التاريخ والوعي الطبقي (1923) قد طبعت كثيرا من التوجهات الفكرية لدى ابرز ممثلي مدرسة

فرانكفورت، من أدورنو و ماركوز الى هابرماس وأتباعه. (هشام شرابي، 2002: 80)

كما يمكن الإشارة كذلك الى أن الطريقة الجريئة التي جمع من خلالها لوكاتش موضوعات حول التشيؤ، قد استقاها من أعمال ماكس فيبر وجورج زيمل، بالإضافة الى ماركس طبعاً. وما دمننا قد تطرقنا الى ماركس، فإن فضل لوكاتش على غيره من شراح ماركس، هو أنه قد استطاع أن يعطي للماركسية بعداً فلسفياً حقيقياً، بعدما كان التحليل الاقتصادي هو المسيطر على أغلبية القراءات والتأويلات، وإن كانت الأسباب الاقتصادية هي التي دفعت لوكاتش بان يلتزم فكرياً بالتطرق الى صياغة مفهوم التشيؤ، خاصة في ظل البطالة المتفاقمة والأزمة الاقتصادية التي تعاني منها جمهورية فايمار.

حين يدرس لوكاتش التشيؤ ووعي البروليتاريا، يعتبر أول من يتحدث عن ظاهرة الاغتراب و التشيؤ في الماركسية (1923) قبل أن تنشر مخطوطات ماركس التي ألفها عام 1844.

إن التشيؤ الذي يقصده لوكاتش هو الوصف المادي والجدلي لعوارض الاغتراب الذي يعاني منه العامل البروليتاري في ظل النظام الرأسمالي. (فريدريك معتوق، 1982: 121) في الواقع، يلاحظ لوكاتش أن الصيغة التجارية التي نمت في ظل الرأسمالية تميزت بعواقب

بنوية قادرة على التأثير في حياة المجتمع بأكملها، إن داخليا أو خارجيا.  
(Georges Lukacs, 1960 : 110-111 )

إن الصيغة التجارية التي كانت قبل ظهور الرأسمالية، لم تبلغ مكان الصدارة ولم تستلم السلطة إلا في عهد الرأسمالية. وميزة هذه الصيغة أنها استطاعت تفكيك المجتمع الذي كان سائدا قبلها، وأن تعيد تنظيمه من جديد بما يتناسب مع مصلحة النظام الرأسمالي.

إن هذه اللحظة بالذات من العملية هي التي ينصب لوكاتش على تحليلها. فهي دقيقة جدا، كما أنها غنية على صعيد العمليات الداخلية التي تمت والتي لولاها لما بقيت الرأسمالية سيدة الموقف والقرار. يعالج لوكاتش هذه اللحظة من خلال تحليله لظاهرة التشبؤ.

إن تعميم هذه الصيغة التجارية يسبب، على الصعيد الذاتي، وكذلك على الصعيد الموضوعي، تجريدا للعمل الإنساني يتموضع في السلع. (Georges Lukacs, 1960 : 114) فالبضاعة هي إنتاج إنساني موجه بصفة مباشرة نحو الاستهلاك، وهذا ما تجلى بوضوح مع الإنسان الطبيعي الذي كان ينتج موادا يستهلكها. لكن الإنسان في الاقتصاد الرأسمالي ينتج البضائع والبضاعة تباع قبل أن تستهلك. فالبضاعة، ورغم أنها من إنتاجه، إلا أنها تظهر مستقلة عنه وغير خاضعة لتصرفه. إنها نتيجة علاقة إنسانية تربط المشغل بالشغيل، لكنها تظهر مرتبطة أساسا بشيء آخر هو النقد: لكي ترجع إلى القصد الأولي منها، أي إلى

الاستهلاك، لا بد أن تتحول الى النقد ثم يتحول النقد الى مادة استهلاكية. عندما تعم البضاعة ويعود الإنتاج كله بضاعيا منفصلا عن الحاجات الإنسانية الأولى، يتكون نظام إنتاجي عام يجمد العلاقات الإنسانية ويجعلها في شكل أشياء. هذه هي عملية التشيؤ. ﴿عبد الله العروي، 2002: 87﴾

إن الرأسمالية مرتبطة بصفة وثيقة بمدى اتساع التشيؤ في كافة المجالات. وكل هذا ينتج عنه بروز فلسفة جديدة في الحياة تقوم على إعطاء الأولوية للسلعة على الإنسان، أي أن هذا الأخير يفقد الأولوية في المعادلة. ﴿لذا، كان بالإمكان أن نقول بأن السبب الاجتماعي الذي يستطيع أن يفسر في آن واحد شمولية واتساع التشيؤ، حسب لوكاتش، يتمثل في تزايد التبادل التجاري الذي أصبح، بعد ظهور الرأسمالية، النمط السائد للنشاط التداوتي، فبمجرد ما تشرع الذوات في تنظيم العلاقات التي تقيمها مع أمثالها بخصوص نمط تبادل البضائع، فإنها تضطر الى إدراج العلاقة مع المحيط في صورة مشيئة، إذ لا يمكن إدراك عناصر وضع ما إلا بتقدير أهمية هذه العناصر من خلال المصالح الأناية للذوات.﴾ (أكسيل هونيث، 2012: 31-32)

إن التشيؤ يعني في مضمونه أن كل مجالات الحياة أصبح يطغى عليها السلوك الأداتي، بسبب أن النمط الحاسب هو الذي يختفي وراء تلك الغايات المبتذلة التي صار يبحث عنها أفراد المجتمع، فلا مجال بعد

الآن للحديث عن مشاعر أو عواطف، لأنه وبكل بساطة التجارب الباطنية للذات أصيب شرايينها الحيوي بالتصلب بسبب فتور السلوك العقلاني. وهذا ما عبر عنه لوكاتش بقوله: ﴿ إنه مع التفكك المعاصر (النفساني) لسير العمل (نظام تايلور)، تتغلغل هذه المكننة العقلانية إلى نفس العامل: حتى إن خاصياته النفسانية تنفصل عن مجمل شخصيته و تتموضع بالنسبة لها، لتتمكن من أن تتحد بأنظمة عقلانية خاصة، وتعاد إلى المفهوم الحسابي. ﴾ (G.Lukacs, 1960 : 115)

فالعامل لا يعود يشارك، لا معنويا ولا موضوعيا، في إنتاج السلعة، نظرا للتقسيم البنيوي لعملية الشغل، والتي نتج عنها تحطيم الإنسان العامل، فأصبح نتيجة لذلك يكتفي بدور تأثري عند إنتاج السلعة. إن العامل تكون خسارته مضاعفة، فهي تشمل الجانب المعنوي والموضوعي معا الذي يمس مباشرة شخصيته. ﴿ ومن هنا يمكن القول بأن النظر الى الموضوع من الناحية الكمية والتعامل الأدوات مع الآخرين، واعتبار القدرات الخاصة والحاجات مجرد أشياء يمكن الاستفادة منها اقتصاديا، أصبحت كلها تدرج في هذا المفهوم العام أي التشبيؤ. ﴾ (أكسيل هونيث، 2012: 32)

لقد تكلم ماركس مرارا عن صنمية السلعة ولكنه ركز على تحليل هذا الموضوع من زاوية اقتصادية. أما عندما يكتب لوكاتش عن الموضوع ذاته فنلاحظ أننا أمام نهج في المعالجة مختلف، تطغى عليه نزعة التحليل

الفلسفي، حيث يسلط لوكاتش الأضواء كلها على الإنسان المشياً، لا على سيرورة التشيؤ الاقتصادية فقط، وفضله على النظرية، في هذا المجال، هو أنه بلور جانبا مهما كان قد بقي، لولاه، في طور الملاحظة الأولية.

من الواضح جليا أن مقولة الكلية التي اعتبرها لوكاتش بأنها هي التي تميز الماركسية الحقة عن الماركسية المبتذلة - التي كانت تفسر كل جوانب الحياة بالدوافع الاقتصادية - فإن هذه الأطروحة اللوكاتشية كذلك من خلال صياغتها لمفهوم التشيؤ، فإنها قد جسدت المقاربة الكليانية التي بقيت غالبية على تحليلاتها. بدليل أن لوكاتش اعتبر أن تأثير التشيؤ لا ينحصر على المجال الاقتصادي أي ما يعرف بصنمية السلعة على حد تعبير ماركس، وإنما يؤكد تأثيره على صعيد الحياة اليومية برمتها في ظل المرحلة الرأسمالية. لذلك فما على الذوات المشاركة في هذا النمط من النظام سوى أن تتعود على هذا النموذج الجديد الذي يحدد علاقاتها بالموضوعات المعطاة، الشركاء، والقدرات والإمكانات، والتي لن تخرج عن النظر الى الموضوع من الناحية الكمية والتعامل الأداتي مع الآخرين، واعتبار القدرات الخاصة والحاجات مجرد أشياء يمكن الاستفادة منها اقتصاديا، وهذه كلها أصبحت تندرج في هذا المفهوم العام أي التشيؤ. (اكسيل هونيث، 2012: 32)

حسب أكسيل هونات، فإن هذا التعميم الذي انتهجه لوكاتش قد توصل من خلاله أن الممارسة المشيئة قد تصلبت ضمن طبيعة ثانية عند الإنسان الذي ولد في أحشاء الرأسمالية التي تقوم على التشبؤ والاغتراب، بدليل أنها تحولت الى مجرد عادة مثلها مثل العادات الأخرى التي تكتسب عن طريق التنشئة الاجتماعية. بحيث لأول مرة في التاريخ، كل المجتمع خاضع (أو يتجه على الأقل ليكون خاضعا) لتطور اقتصادي يكون وحدة. وإن مصير كل أعضاء المجتمع تحركه قوانين تشكل وحدة. إن الرأسمالية ليست مجرد بنية، وإنما تطمح الى أن تكون رحما لجميع البنى.

حسب أكسيل هونات دائما، فإن هذا النص (أي التاريخ والوعي الطبقي) لم يوضح بالقدر الكافي الطريقة التي سلكها لوكاتش من الناحية النظرية عندما قام بهذا التعميم. لقد كان هذا الأخير مترددا في الخيار بين إستراتيجيتين في تفسيره. لذلك، فمن جهة يبدو لنا انه استند الى الحججة الوظيفانية القائلة بأن توسع الرأسمالية يقتضي توظيف كل مجالات الحياة، وهذا من خلال نموذج الفعل الذي لا ينفك عن تبادل البضائع. ومن جهة أخرى نجد قريبا من ماكس فيبر الذي كان يعتقد بأن مسار العقلنة سيؤدي في آخر المطاف الى اتساع المواقف المرتبطة بالغايات العقلية، الى المجالات العقلية التي كانت خاضعة الى حد الآن لسيطرة السلوكيات التي اتسمت بالطابع التقليدي. (أكسيل هونيث، 2012: 33)

إن هذه المقاربة الكليانية عند صياغة لوكاتش لمفهوم التشبؤ، قد أكدت مرة أخرى أن أهميته تتجلى في كونه قد تمكن من تجاوز التحليل الاقتصادي لهذه المسألة، وذلك من خلال طرحه الفلسفي الجريء والنزاهة الفكري. إن كتاب الرأسمال لم يعد يُقرأ ككتاب يؤرخ لتطور الرأسمالية، وإنما وجد لوكاتش بين ثناياه العديد من الأطروحات التي تقبل القراءة الفلسفية والإيديولوجية.

❖ في الواقع لم يتحدّ لوكاتش الأرثوذكسية السوفياتية الناشئة فحسب، بل تحدى أيضا أولئك الاشتراكيين الغربيين الذين حاولوا خلال عقدين متتاليين أن يوحّدوا الماركس منزلة أكاديمية من خلال تقديم أعماله كمنشأة أو صياغة متحررة من القيم بعيدة كل البعد عن منشأ مؤلفها الهيجلي (...). ومع ذلك، فإن هذا الرفض، بالتحديد للنائية أو الازدواجية بين الواقعة والقيمة، هو الذي جعل لوكاتش أهمية كبرى لدى جيل كامل من المثقفين وسط أوروبا (...). لقد زودهم لوكاتش عام 1923 بما عجز أي مُنظر آخر عن تقديمه، وهو تحليل ماركسي يلتزم بالحقائق، ولا يشجب التراث الهيجلي باسم العلم. ❖ (جورج ليشتهايم، 1975: 87)

من الواضح جليا أن لوكاتش يهدف من خلال تجاوزه لهذه النائية بين الواقعة والقيمة، الى دحض ذلك الطرح الذي أصبح يتغلغل أكثر فأكثر وسط المفكرين الغربيين، باعتبار أن العلم أصبح يرادف

الموضوعية، مما يقتضي الفصل الصارم بين الحقائق والقيم. وهذا ما كرسته المدرسة الكانطية الجديدة، التي شمل تأثيرها حتى المفكرين الاشتراكيين.

ففي كتابه التاريخ والوعي الطبقي استعمل مفهوم التشبؤ بمعناه الحرفي لوصف نمط من السلوك يمكن اعتباره خاطئا لأنه غير متطابق مع بعض المعطيات الأنطولوجية. وهذا على الرغم من أنه قد امتنع كليا عن الاستعانة بالمفردات الأخلاقية. ومع ذلك فقد تضمن تحليل التشبؤ بكل تأكيد، مضمونا أخلاقيا.

لم تكن الحجج التي قدمها ضد التشبؤ الرأسمالي لظروف حياتنا سوى طابع معياري غير مباشر... قدم تفسيراً من وجهة نظر الأنطولوجيا الاجتماعية للأمراض (الباثولوجيات) الخاصة بحياتنا العملية.

ما يعني أن المقاربة الكليانية للتشبؤ قد حملت في ثناياها طابعا معياريا، لا مجرد صياغته من طرف لوكاتش على كونه خطأ معرفي فيما يخص هذه المقولة، وإن كان هذا الطابع يختلف عن المقاربات الكلاسيكية التي عرفت الفلسفة الأخلاقية.

الخاتمة:

لم يهتم المعاصرون بالجانب المنهجي والمعرفي لمؤلفات ماركس (رأس المال، الإيديولوجية الألمانية) لأنهم كانوا يجهلون الظروف التي

طرحت فيها قضية أصل الإيديولوجية. بدا لهم أن اهتمام ماركس بمسائل الوعي والواقع، العلم والإيديولوجية، من سلبيات تكوينه الفلسفي. كانوا يقفزون فوق التحليلات المعرفية و يقرأون كتاب الرأسمال كتاريخ تطور النظام الرأسمالي.

لقد كان فضل لوكاتش على غيره من شرّاح ماركس أنه أخذ مأخذ الجد الصفحات النهائية المبعثرة في غضون كتاب الرأس مال. استطاع، بدون اطلاع على المؤلفات الأولى، أن يستنبط الإشكالية الأصلية ويركب من جديد إيديولوجيا ماركس، فأعطى للماركسية بعدا فلسفيا حقيقيا.

يعتبر مفهوم التشيؤ من المفاهيم الفلسفية الرئيسية التي اهتم بصياغتها وتحليلها لوكاتش، بحيث يعتبر بمثابة التصور الجوهرى في مؤلفه التاريخ والوعي الطبقي، وما تكريس له، من طرفه، الجزء الأهم والأكبر من الكتاب، لا دليل على ذلك، والذي حمل عنوان التشيؤ ووعي البروليتاريا، والذي أشار من خلاله الى مسألة التشيؤ من حيث هي تحويل لبنية الوعي، وذلك بجعله وعيا زائفا.

إن المقاربة الكليانية التي انتهجها لوكاتش عند صياغته لمفهوم التشيؤ، قد فتحت المجال واسعا للاهتمام بهذا المفهوم في المرحلة المعاصرة، خاصة عند فلاسفة مدرسة فرانكفورت (أدورنو، ماركوز، أكسيل هونات... الخ).

## التعليقات:

(التعليق رقم 1) تتمثل هذه القيادات الاشتراكية - الديمقراطية الأوروبية في كل من برنشتين، تيجان برنفسكي، و أوتو باور.

(التعليق رقم 2) يعتبر مؤلف ضد دوهرينج من المؤلفات الرئيسية التي ألفها المنجل، والذي دافع من خلاله على جدلية الطبيعة.

(التعليق رقم 3) المقصود هنا القيادات الاشتراكية - الديمقراطية الأوروبية.

(التعليق رقم 4) إن الصنمية هي ترجمة للكلمة الانجليزية (Fetishism). فعندما يهيمن التبادل على حركة البضاعة تغدو صنما، تماما كالوثن حين يُعبد يغدو صنما.

## المراجع:

- باللغة العربية:

1- العروي، عبد الله، (2007). « مفهوم الايديولوجيا»، الطبعة 7. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.

2- بسطاويسي، محمد غانم، (1991). «علم الجمال عند لوكاتش»، الطبعة 1، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

- 3- بورتللي، هيغ، (1997). «انطونيو غرامشي-دفاتر السجن»، مقال في: معجم المؤلفات الجامعية، ترجمة: صاصيلا، ط1، بيروت: المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع، (655-662).
- 4- شرابي، هشام، (2002). «الاغتراب والوعي والأصالة عند لوكاتش و هيدجر»، مقال في مجلة أوراق فلسفية، ترجمة: محمود شريح، العدد السابع. مركز نور للنشر، (80-85).
- 5- ليشتهام، جورج، (1975). «لوكاتش»، ترجمة: الكيالي، يوسف شويري، الطبعة 1. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- 6- مرينغتون، جون، (1970). «النظرية والممارسة في ماركسية غرامشي»، ترجمة: راهي شرفان، وقيس الشامي، الطبعة 1، بيروت: دار الطليعة.
- 7- هونيث، أكسيل، (2012). «التشيؤ - دراسة في نظرية الاعتراف-»، ترجمة: كمال بومنير، الطبعة 1، الجزائر: مؤسسة كنوز المعرفة للنشر والتوزيع.
- باللغة الأجنبية:

- 1-Arvon, Henri, (1986). Georges Lukacs. Paris: édition seglers.
- 2-Goldmann, Lucien, (1966). Sciences humaines et philosophie. Paris: Ed.Gonthier.
- 3-Lukacs, Georges, (1960). Histoire et conscience de classe. Paris: Edition de Minuit.
- 4-Lukacs, Georges, (1978). Littérature, Philosophie, Marxisme (1922-1923). Paris: P.U.F.
- 5-Merleau - ponty, Maurice, (1955). Les aventures de la dialectique. Paris: Ed.Gallimard.